هوامش

على مدى عقد كامل، لم توفّر الحرب في سورية أيّاً من مكوّنات المجتمع السوري، ومن بينها البدو. هؤلاء وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تغيير نمط حياتهم، فخسروا خصوصيتهم إلى حدّ ما

القهوة العربية المرّة من العادات الصامدة (العربي الجديد)

بدو سورية

الترحال وخسارة المواشي في زمن الحرب

عبد الرحمن خضر

باختصار

بدو سورية ينقسمون إلى رحّل وغير رحّل، وكان عددهم يُقدّر قبل الثورة بنحو 500 ألف نسمة، أمّا بعد الثورة، فقد تراجع إلى بضعة آلاف

■■■

هم ما زالوا محافظين على العادات والتقاليد، وقد استقروا في إدلب وأرياف حلب والرقة والحسكة الخاضعة لسيطرة المعارضة السورية

■■■

تُقدَّر نسبة المواشي التي خسرها بدو سورية بنحو 70 في المائة، فيما خسروا نحو 80 في المائة من نسبة المراعي

في سورية، كما في غيرها من دول الجوار العربي، بدو رحّل يمتهنون رعاية الأغنام، ويتنقّلون في أراضيها من أجل الكلأ والمياه، على مدار السنة. لا يُعرف لهؤلاء مكان واحد يستقرّون فيه، وقد اقتصروا على موسمَين للترحال قبل سنوات الحرب التي قضت على معظم مواشيهم، وأفقدتهم القدرة على التنقّل بسبب اختلاف القوى المسيطرة في البلاد وتعرّض قطعانهم للقتل والسرقة، وخصوصاً في البادية السورية التي كان بدوها مصدراً للألبان والأجبان واللحوم للمدن. وهؤلاء البدو بمعظمهم من أبناء العشائر والقبائل العربية، وفقاً لتقديرات تعود إلى ما قبل عام 2011، ويتوزّعون على محافظات حمص وحماة وحلب والجزيرة السورية ودرعا، إلى جانب عدد قليل يتوزّع على ريفَي دمشق وإدلب.

يوضح رئيس المكتب السياسي في قبيلة «البوشعبان» صخر العلي لـ«العربي الجديد» أنّ «بدو سورية ينقسمون إلى رحّل وغير رحّل، وكان عددهم يُقدّر قبل الثورة بنحو 500 ألف نسمة. أمّا بعد الثورة، فقد تراجع إلى بضعة آلاف، وهم ما زالوا محافظين على العادات والتقاليد، وقد استقروا في إدلب وأرياف حلب والرقة والحسكة الخاضعة لسيطرة المعارضة السورية. أمّا بالنسبة إلى الرحّل منهم، فهم الذين يتنقّلون أينما وُجدت المياه والكلأ لمواشيهم». ويشير إلى أنّ «نصف الرحّل كانوا يرتحلون مرتين في كل موسم، ويقصدون البادية السورية في الربيع بدءاً من شهر فبراير/ شباط وحتى مطلع مايو/ أيار، وفي الصيف كانوا ينتقلون إلى سهل الغاب في ريف حماة والجزيرة السورية». يضيف العلي أنّ «رحلة ثالثة إلى لواء إسكندرون الشهير بأراضيه الخصبة لم تعد موجودة، مذ ضمّت تركيا اللواء إلى أراضيها في ثلاثينيات القرن الماضي. كذلك فإنّ هذه الرحلات تأثّرت في توجّه أبناء البدو نحو التعلّم منذ عام 1990، وتوقّفت نهائياً مع اندلاع الثورة السورية ومشاركة أبناء البدو في أحداثها كغيرهم من السوريين. فخسائر المواشي التي كانت تعتمد حياتهم عليها أتت كبيرة بسبب القصف».

تمسّك بالعادات

وبحسب العلي، فإنّ «أبناء البدو بمعظمهم انضموا إلى الثورة وهاجروا إلى الشمال السوري، وقلة منهم بقيت في مناطق سيطرة النظام. وتسمع أخبار سطو عليهم وعلى مواشيهم في كلّ يوم، في أرياف الرقة وحلب وحماة». يؤكّد أن «انتشار المليشيات في البادية السورية اليوم، وقبله سيطرة تنظيم داعش الإرهابي حرما هذه الفئة الاستفادة من خيرات البادية حيث كانت ترعى أغنامهم بالمجان، وحيث كانوا ينقلون بيوت الشعر بحرية. كذلك لم يعودوا قادرين على التوجّه إلى سهل الغاب الذي تسيطر عليه مليشيات موالية للنظام وهجّرت أهله من المعارضين».

ويقدّر العلي «نسبة المواشي التي خسرها بدو سورية بنحو 70 في المائة، فيما خسروا نحو 80 في المائة من نسبة المراعي»، لافتاً إلى أنّ «خمسة في المائة من هذه المواشي كانت في مناطق سيطرة المعارضة، واثنتين في المائة في مناطق سيطرة النظام، والباقي في المناطق الخاضعة لسيطرة الإدارة الذاتية (الكردية)».

من جهته، يقول شيخ عشيرة «الصعب» ياسر العلوش لـ«العربي الجديد» إنّ «البدو الذين اعتادوا الحياة الهادئة اضطرّوا إلى النزوح والعيش في المخيمات، فتغيّر نمط حياتهم بشكل كامل، فيما فقد معظمهم مصادر رزقهم، وكثيرون منهم امتهنوا مهناً أخرى»، مضيفاً أنّ «من بينهم من أرسل أبناءه للعمل في تركيا ودول الجوار وأوروبا، ومنهم من أنشأ مشاريع أخرى بعيدة كل البعد عمّا اعتادوه في حياتهم». ويشير العلوش إلى أنّ «البدوي كان يزور البدوي الآخر في حال مرضه ويحمل له ما يستطيع من هدايا. أمّا اليوم، فلم يعد هذا متاحاً، وبات البدوي يطمئنّ على صديقه أو قريبه المريض عبر الاتصالات الهاتفية، وهذا يحزّ في نفس كل بدوي، لكنّ العذر متوافر». ويؤكّد العلوش أنّ «البدوي لم يعتد هذا النمط من الحياة، لكنّه ضحّى من أجل ذلك إيماناً بالثورة التي وجب عليه المشاركة فيها إلى جانب سوريين آخرين. وهذا لم يمنعه من الحفاظ على عادات كثيرة من قبيل إكرام الضيف وإغاثة الملهوف ومشاركة الأقارب والجيران والمعارف في الأفراح والأتراح. وتمسّكهم بهذه العادات هو ما حتّم عليهم المشاركة في الثورة، على حساب أملاكهم ومواشيهم».

كانت الحياة بسيطة

أمّا شيخ عشيرة «البوشيخ»، نادر جويد، فيؤكد لـ«العربي الجديد» أنّ «حياة البدوي كانت بسيطة، وبيته يُقام من صوف الأغنام ووبر الجمال. ويكتسب البيت أهميته من أهمية صاحبه، فبيت شيخ العشيرة معروف بكبره. ويُحفر حول بيت البدوي خندق صغير في الشتاء يمنع دخول مياه الأمطار إلى داخله، وهو مقسّم إلى قسمين: واحد للضيوف والجلوس، وآخر للنساء إلى جانبه خيمة صغيرة تُستخدم كمطبخ. وفي القسم المخصص للضيوف مكان للنار وللقهوة العربية المرّة. لكنّ هذه العادات كلها اندثرت بسبب حملات التهجير والنزوح واضطرار البدو كغيرهم من السوريين إلى اللجوء إلى مخيمات النزوح». يضيف جويد أنّ «كثيرين من البدو تحوّلوا اليوم إلى تجّار للأغنام في الشمال السوري. والواحد منهم كان يملك مئات أو حتى آلافاً من رؤوس غنم العواس التي تشتهر بها سورية، فالبدوي لم يعتد بيع الأغنام، بل كان يتفاخر بكثرتها. وكان من قوانين البدو ألا يعلّق الجرس في قطيع إلا إذا تخطى عدد الأغنام فيه الألف. لكن اليوم، بات أكبر عدد يملكه البدوي في أحسن الأحوال 100 رأس من الغنم.

تجدر الإشارة إلى أنّ ثمّة تقديرات تفيد بأنّ نسبة البدو في سورية كانت تُقدّر بنحو 10 في المائة إلى 12 من إجمالي عدد السكان. وفي عام 1943، خُصّصت لهم 10 مقاعد في البرلمان من مجموع 135 مقعداً، أي سبعة في المائة. وفي هذا الإطار، أشارت الباحثة الأميركية داون تشاتي، في بحث نُشر في مجلة «عمران للعلوم الاجتماعية الدورية» في شتاء عام 2016، إلى أنّ البدو السوريين سعوا إلى الحفاظ على خصوصيتهم وأسلوبهم في الحياة، ما صعّب إجراء دراسات دقيقة عنهم.

وأخيراً

لَوْثةُ الانحطاط

نجوى بركات

ثمّة حجر عالقٌ في بلعومي. حجارة وحصى ودبابيس أبصق الكثيرَ منها، إنما تبقى آثارُها ويدوم صداُها. كم ينبغي لي أن أنأى، وما هو مقدار العزلة الضرورية لكي أحتمي من هذا الوباء؟ ليس كورونا هو شاغلي. إنه وباءٌ من نوع آخر، يسمّم العقل، يُفسد الروح، يضرب الأنسجة العصبية، يقتل الطاقة التي فينا ويزيحنا عن المشهد العام. كالجذام. أنت تصبح منبوذا بين الجميع. لماذا لم تصبك اللوثة إياها، وما سبب مقاومتك المستميتة هذه، أيها «الفالح» الذي لم يسمع بك أحد، ولا تعرفك إلا قلّة قليلة لا يعدو عددُها عددَ الأصابع؟ ضع رأسَك بين الرؤوس وامشِ بين القطيع. القطيعُ ملتحما، يحميك. دَعْ أمرك له، استسلِمْ والتحمْ لتصبحا جسمًا واحدًا. لكن تذكّر، إن أنتَ أعقتَ حركتَه، سيرَه، داسك بحوافره وانطلق من دون مبالاة.

أجلسُ في بيتي، ولا أهتمّ إلا بشؤوني. شؤوني صغيرة لا تُقلق أحدًا ولا صوت لها أو فحيح. شؤونٌ صغيرة جدا قد لا يُرى بعضُها حتى بالميكروسكوب. ومع ذلك، ثمّة ما لا يُبتلع ويبقى عالقًا في الحنجرة يُعيق التنفّس والكلام. أقول لنفسي: يا نفسي، اشربي كوبَ ماء، فأقوم وأشرب كوبَ ماء. امضغي علكة، فأمضغ علكة. ضعي موسيقى وقومي بحركاتٍ تلهي وتُبهج، فأمتثل، إلى أن يفاجئني معطوبٌ آخر يقفز إلي من شاشة الكومبيوتر عبر ما ينشره «أصدقاءُ» افتراضيون أتوهّم أن ثمّة ما يربطني بهم ولو من بعيد. نَعْيُ أشخاص لا أعرفهم أخجل ألا أعزّي بهم، وإن فعلتُ مسايرةً، فلأن الأمر لا يؤذي ولا يشكّل معضلة ضمير أو أخلاق. صور أطفال ولدوا، ويكبرون، جميل. إصدارات كتب جديدة وتهاني بالمئات، ولست أدري فعليا كم من المهنّئين سيقتنون الكتابَ ويقرأونه. إنهاء مخطوطة ما ونشرها غبطةٌ لا يمكن أسرها، أعترفُ، إنها تفيض. ثم يأتي ما لا يُحتمل من مقالات وتعليقات حول أهمية عمل فني أو أدبي ما.

أخيرا، مثلا، قرأت مقالةً صدمتني بخوائها. الصادم نشرها في مجلة أدبية محترمة، واحتلالها ستّ صفحات. أجل، ستّا! قيل لي إن كاتبها «طيّب»، وهو يحبّ الروائي الذي كتب عنه. قيل لي أيضا إن الكاتب المعنيّ موهوب، ويستحق هذه اللفتة الزاخرة بـ«العواطف الأدبية». نشر الكاتب هذ المقالة على صفحته، واعتداده بها مدعاة للتساؤل. إنما، الكتّاب أيضا يحتاجون الدعم، وإن أتى عشوائيا وكيفما اتفّق. موهبة الكاتب ليست هي المسألة. المقالة التي تقول إن الكاتب موهوب يُتوقع له نيل جائزة نوبل للآداب، ولا تضيف شيئا عن مبرّرات هذا «التوقع» هي المعضلة. المقالة ليست ستاتوس على صفحة قارئ معجب لا يمتهن النقد أو الكتابة. ستّ صفحات لكي تقول فرادة الكاتب وعبقريته، دونما ذكر أي دليلٍ أو برهان، سوى انتشاره، ونيله جوائز تقديرية، وعدد أعماله المتزايد وترجمتها، وسفره إلى عدة بلدان، وعلاقته الجيدة بالداخل والخارج معا!

وفي شهر رمضان المبارك، تستعر التعليقات وتقييمات المسلسلات المعروضة في هذه المناسبة، فينبري لنا من يعيّن لنا ما هو المسلسل الأفضل، أو الأكثر مشاهدةً، ومن هي النجمة الأولى من دون منازع، والنجم الأول، والسيناريو الأكمل، و... هذا كله من «نقّاد» يبتكرون أنفسهم من لا شيء، وينقل نجومُ الأعمال المعروضة تعليقاتهم على صفحاتهم الخاصة، ضمن مباراةٍ قد يكون عنوانها «من هو المدّاح الأكبر؟»، فيما المشاهدُ المسكين ضائعٌ بين تفاصيل هذا المشهد أو ذاك، أو تحوّل مظهر تلك الممثلة، أو أدائها الذي لم يُر له مثيل من قبل. وليس هناك من يصوّب، ويصحّح، ويضع الأمور في نصابها الحقيقي، أو يكتب مقالا جدّيا يتناول فيه حسنات هذا العمل ونقاط ضعفه. عناوين، عناوين، من دون محتوى، وأعمال معظمها لا يرقى إلى الحد الأدنى، وسيناريوهات ضعيفة تلوك نفسها أو تبتدع حبكاتٍ مأخوذةً من هنا وهناك، وكاتبة سيناريو نجمة استنفدت طاقتها منذ أزمنة، تتربّع على سوق الكتابة، ولا يعصى عليها أي موضوع، في مسلسلاتٍ تافهةٍ لا رأس لها ولا عقب..

> لوثةُ الانحطاط فتكت بنا، وحفلُ الجنون والتفاهة بلغ أوجَه، فيما القطارُ ماضٍ بنا إلى الوراء

لوثةُ الانحطاط فتكت بنا، وحفلُ الجنون والتفاهة بلغ أوجَه، فيما القطارُ ماضٍ بنا إلى الوراء، عامًا إثر عام، بانتظار أن يصطدم أخيرًا ويحوّلنا إلى غبار.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**